بين التساؤلات وأسرار الغيب يتربع القدر الحكيم

✍ أ. ماجد رسلان

◆ ما السر في مجيء العباقرة الأعلام للدنيا مجيئاً عابراً طبيعياً يمر مر الكرام ، كسحاب ساقته رياح قُدّر لها ألا تدعهم أكثر من وَمضة مُشِّعة تطفئها ريح عاصف ، بعد أداء مهامهم وتكاليفهم بشكل خاطف سريع وناطف مليء .

◆ ما السر في مجيئهم في أوقات متباعدة من الزمن على حين فترة ، وذهابهم على حين غرة ؟! .

◆ ما السر في أن حياتهم القصيرة أشبه ما تكون بنـزول مسافر في محطة ترك فيها بطاقته الشخصية ثم تابع سيره لا يلوي على شيء ؟!

◆ ما السر في هذا المرور السريع وقد حولوا ليل الأمة إلى نهار ، وظلامها إلى نور ، وسُباتها إلى يقظة ، وجهلها إلى معرفة ، وخرافاتها إلى علم ، وتثاقلها إلى الأرض وإخلاد إلى

حركة وثابة ، وإحباطها إلى أمل ، ويأسها إلى رجاء .. وبينما هي محبورة بهم ، سعيدة بحياتهم ، إذ تفتقدهم فجأة ، وهي أشد ما تكون حاجة لعلمهم الجم ، وبصيرتهم المتفتحة ، وقيادتهم الرشيدة ، وحنكتهم الحكيمة ، ورؤيتهم السديدة البعيدة المدى ، وفراستهم الصائبة لانتصار الحق والخير ، في الحاضر بكل شؤونه وشجونه ، والمستقبل بكل آماله وتطلعاته ؟! .

◆ ما السر في اختفائهم في تلافيف أمواج الموت ، وهم ما يزالون في ريعان الشباب وشرخ الرجولة ؟!

◆ ما السر في الزَّخَم والكثافة للميراث الذي تركوه وراءهم ، وقد قاموا بما لا تستطيعه العصبة من العلماء من إحداث التغيير والتحول في النفس والمجتمع ، تغييراً بليغاً وتحولاً ملحوظاً ، مع أنهم لم يأخذوا حظاً وافياً من زمن الحياة الطويل لزمن حياتهم القصير ؟! .

◆ ما السر أن هؤلاء الأعلام يأتون وقد زُودوا بمواصفات ذاتية من طاقات وإمكانات عقلية وفكرية ، روحية وجسدية ، متميزة فريدة لم يسبق أن تجمعت في غيرهم إلا قليلٌ من قليل ؟!

ما السر في هذا كله ؟!

الذي ألجأني لطرح هذه التساؤلات أنني أثناء مطالعتي لكتاب " مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه " تأثرت تأثراً بليغاً نكأ جروحاً ، وأعاد أحزاناً ، وأثار هموماً من مرابضها ، وبعث شموساً من مراقدها .. وكأن الحدث الجلل الذي وقع من ست وثلاثين سنة وطرق سمعي الآن بكل ثقله ، فكنت كلما أوغلت في القراءة ملقياً السمع والبصر والفؤاد لكاتب ما يتحدث عن صفات السباعي التي بَزَّ بها أقرانه ، خنقتني العَبَرات ، وكتمت أنفاسي الشهقات ، ولوعتني مرارة الزفرات .. ولطالما انفجر البكاء المكظوم في صدري حين تذكرت الصفات الجُلَّى التي كان يتمتع بها فقيدنا الحبيب الغالي .. ولطالما أمضّني الألم وهدّني الحزن لفقدانها وغيابها ، والتي أجمع معظم النقاد والكتاب والخطباء والمتحدثون والمحبون والمخالفون بأن السباعي كان بها أمة في رجل ، بل كان - رحمه الله - كوكبة من العلماء في علوم شتى واختصاصات مختلفة مجتمعة ومتناسقة في رجل واحد !! .

حقاً ! إن فقدان صفة واحدة من صفاته الكثيرة في ليلنا

البهيم يعتبر من الرزايا التي تهز أركان الوجدان وتعتصر عروق المشاعر والأحاسيس حتى الثمالة ، فكيف الحال بفقدان مجموعها المتناسق المتآلف المتشابك المتآخي .. والتي إذا ما سمعت بها أو قرأت عنها تقول على البديهة : إنها شخصية السباعي الفذة التي صال بها وجال على كل صعيد وعلى كل مستوى . ولقد تذكرت وأنا في خضم أحزاني التي بعثتها قراءة الكتاب : ما قاله فقيدنا الكبير في كتابه الفذ " هكذا علمتني الحياة " : « يا شباب الإيمان ! ستفجعون في كثير ممن تعلقون عليهم الآمال ، فلا تيأسوا ، فإنما أنتم في تجربة إثر تجربة ، وحسبكم قلوبكم السليمة وإخلاصكم النبيل ، ولا بد أن تتمخض الليالي عن أملكم المنشود ، فالله أحنى على دعوته منكم ، وأكرمُ من أن يَردَّ دعواتكم ، وأعلم من أن لا تبلغه خفقات قلوبكم » ص ٢١٩ .

عندها أدركت من هذه الكلمة الرائعة كثيراً من معاني التساؤلات التي طرحتها ، والتي ربما يطرح معها غيرها ، ولكي نكون في ركاب الحقيقة لا نبعد النجعة عنها قِيدَ أنملة ينبغي أن نتذكر أن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي صنعه الله

على عينه ، التحق بالرفيق الأعلى وهو في شرخ الشباب ، وكانت حياته المشبعة بالوحي ومضة مشعة ما تزال تضيء دروب الحياة ، إلى قيام الساعة ، وأن الله عزَّ وجلَّ بعثه على حين فترة من الرسل ، وكانت بينه وبين عيسى عليه السلام ما يقارب الخمسمائة سنة ، وإن الله عزَّ وجلَّ الذي ختم به الرسل تكفل أن يبعث لهذه الأمة كل فترة علماً من الأعلام يجدد لها دينها ، ليبعث فيها الأمل والرجاء ويضعها ثابتة على الطريق المستقيمة الواصلة إلى رضوان الله ، كلما التوت بها السبل ، أو انجرفت وانحرفت عن الهدى المستقيم ، وكأن الله عزَّ وجلَّ يريد أن ينبهنا دائماً أن الذي من اختصاصه أن يجعل رسالته حيث يشاء ، من اختصاصه كذلك أن يختار لتجديد الدين من يريد في الزمان والمكان حسب مشيئته المطلقة وقدره الحكيم .

لقد كان الفاروق عمر رضي الله عنه مدركاً روح العقيدة التي ينبغي أن تكون سليمة دائماً من تسلل أدنى دَغل شركي خفي أو ظاهر ، في العقول والقلوب ، والسلوك والمشاعر ، وذلك حين عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه لما بدأ الناس يُفتنون به وبعبقريته العسكرية ، وجهاده البليغ ، وأفعاله العظيمة ، وفتوحاته

النادرة ، وأن النصر يمشي في ركابه وحده أنى سار ! أراد أن يأتي على هذا المعتقد من قواعده ، حين أخذ خطره يستفحل في القلوب والعواطف ، والعقول والمدارك ، وأن ينبه الأمة والخلق أجمعين بأن صاحب الشأن في هذا كله هو الله - عزَّت قدرته - الذي منح خالداً مواهب وتوفيقاً وسداداً منه وحده ، ولولا ذلك لما استطاع أن يحرك ساكناً أو يسمع ركزاً ..

ومن خلال حركة الحياة وتقلباتها وإقبالها وإدبارها .. كثيراً ما تخفى علينا أسرار من المغيبات ، فنظن مثلاً أن الفلاح أو النجاح ، أو النصر أو التقديم أو التأخير أو .. هو ما يتوجب علينا أن نحفِد إليه ونسعى له ونجاهد من أجله .. وتمضي الأيام وتظهر الحقيقة الخافية علينا ، والتي كنا لا ندرك منها أين يكمن الخير أو الشر ، وصدق الله العظيم : { ... **وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** } [البقرة : ٢١٦] .

إذن هناك قدر حكيم عليم ، هناك قدر لطيف : رحيم ، هناك قدر محيط قدير .. فينبغي أن يكون الإيمان به راسخاً عميقاً ، والاعتقاد به صلباً قوياً ، والتسليم له مطمئناً رضياً .. فحين

نقول مثلاً : إن السباعي جاء قبل أوانه بربع قرن ، أو أن فلاناً جاء فلتة من الزمن ، أو هو فلتة .. فهذا كلام من منظور العقيدة غير سليم وغير صحيح ، لأن كل شيء في هذا الوجود الكبير بتقدير وقدر ، وكل شيء بعلم وحكمة ، وكل شيء بإرادة ومشيئة ، وكل شيء بميزان وحسبان : { **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** } ؟!

وما أفصح السباعي وأبلغه - رحمه الله - حياً وميتاً حين قال : " يا شباب الإسلام ! إن الإسلام لم يدخل في معركته الكبرى بعد ، ولن يدخلها إلا يوم يستوثق من تنظيم صفوفكم ، وكفاءة قيادتكم ، وحسن طاعتكم ، وجودة أسلحتكم ومعرفتكم لأهداف معركته مع أعداء أمتكم ، وتفضيلكم أن تموتوا في المعركة شهداء ترتعون في رياض الجنة على أن ترجعوا منها أحياء يزهيكم النصر ، وترتعون في مفاتن الدنيا ، فلا تسألوا عن وقت المعركة فذلك مرهون باستعدادكم ، ولا تسألوا عن مكانها فذلك علمه عند ربكم " هكذا علمتني الحياة : ص ٢٢٠ .

أجل ! كما أن هناك اختياراً أو مشيئة من العليم الخبير .. أن يجعل رسالته حيث يشاء ، وأن يبعث من يجدد الدين على يد

من يريد . كذلك ينبغي أن يكون الاستعداد والأخذ بالأسباب والإعداد الدقيق والتنظيم الشامل ، والتربية الروحية والأخلاقية والجسدية والنفسية ، والطاعة والإخلاص لله والتوبة الدائمة والمسارعة المستمرة إليه وتنفيذ أوامره والإذعان لقضائه وقدره ، وترتيب الأولويات ، وتقديم المهمات حسب المقتضيات للدعوة وشؤونها ومراحلها ، وعندها تكون هذه الحركة وهذا الجهد ، وهذه الفاعليات جزءاً من قدر الله وقضائه الغلاَّب ، ومشيئته النافذة ..

وأخيراً جزى الله عنا خير الجزاء أصحاب دار الوراق بإخراجهم هذا الكتاب الطيب النافع المذكِّر .. وجزى الله خيراً شيخنا الكبير وأستاذنا الجليل زهير الشاويش حفظه الله ورعاه .. الذي كان وراء هذا الإخراج بأشياء كثيرة منها الوثائق والصور ، ولا فضَّ الله فاه بالكلمة الطيبة التي قرَّظ بها الكتاب ، ووضع بعض النقاط على بعض الحروف ، آملين منه أن يضع كل النقاط على كل الحروف ، لأنه مع بعض إخوانه هم من البقية الباقية الذين بقوا بعد السباعي وكانوا ملتفين حوله في حياته التفاف السوار بالمعصم ، فهم يعلمون الكثير من

الحقائق التي ما تزال خافية والتي ينبغي أن تظهر بجلاء ووضوح ، لأنها أضحت جزءاً من تاريخ الدعوة وتاريخ الأمة ، تحمل بين ثناياها وطواياها التجارب الأثيلة والخبرات الجليلة ، والمعلومات المفيدة التي لا غنى عنها لمن بعدهم ؛ تهديهم سواء السبيل وتعيد الأمور إلى نصابها ومجاريها ، وتعيد الخير والفضل لأهله وذويه .

اللهم اجعلنا جميعاً خير خلف لخير سلف ، وثبتنا على الحق المبين حتى نلقاك وأنت راضٍ عنا يا أرحم الراحمين .

الهوامش :

(١) نطف الماء نطفاً وتناطفاً = سال

نطّف الماء = صبه ، القاموس المحيط